د. واتيكي كميلة

قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

جامعة عبد الرحمن ميرة- بجاية

المحاضرة الثالثة المنهج البنيوي

1- التعريف الاصطلاحي للبنيوية

من الصعب تقديم تعريف شامل موحّد للبنيوية. ولفظة بنيوية Structuralisme مشتقة من لفظة بنية Structure وهي بدورها مشتقة من الفعل اللاتيني Struere أي بنى، وهو يعني بذلك الهيئة أو الكيفية التي يوجد عليها. أمّا المعادل الفرنسي فهو كلمة Structure، ولها عموما دلالات مختلفة، من قبيل النظام، الشكل، الترتيب، والتركيب.

تعرّف البنية بمعنى خاص وجديد، وتستعمل من أجل تعيين كلّ مكوّن من ظواهر متضامنة، بحيث يكون كلّ عنصر فيها متعلّقا بالعناصر الأخرى، ولا يمكن أن يكون ذا دلالة إلا في إطار هذا الكلّ.ويرى **فولكييه** أنّ البحوث في مجال العلوم الإنسانية ينبغي لها أن تنشد الطريقة البنيوية، قصد توضيح الموضوع قيد الدراسة بوضعه داخل بنية، حيث كان موجودا ومتضمنا من قبل.أمّا **ليفي شتراوس** يرى أنّ البنية تحمل أوّلا وقبل كلّ شيء طابع النسق والنظام، فالبنية تتألف من عناصر إذا ما تعرّض الواحد منها للتغيّر أو التحوّل تحوّلت بقية العناصر الأخرى، ذلك انّه رغم التنافر الظاهري الذي نلاحظه بين البنى والظواهر في المجال الإنساني، فإنّ هناك قواسم مشتركة وروابط تربط بينها.

يرى **ليفي شتراوس** أنّ النماذج التي تستحق اسم بنية يجب أن تلبي حصرا شروطا أربعة:

1- تتسّم البنية بطابع المنظومة، التي تتألّف من عناصر تغيّر أحدها تغيّر العناصر الأخرى.

2- كلّ نموذج ينتمي إلى مجموعة من التحولات التي يطابق كلّ منها نموذجا من أصل واحد، بحيث أنّ مجموع التحوّلات يشكّل مجموعة من الخارج.

3- إنّ الخصائص المبنية أعلاه تسمح بتوقّع طريقة ردّ فعل النموذج عند تغيّر أحد عناصره.

4- وأخيرا يجب بناء النموذج بحيث يستطيع عمله تسويغ جميع الوقائع الملاحظة.

جاءت البنيوية كمفهوم فلسفي، فتحوّلت إلى فلسفة معاصرة، عرفت خاصة في فرنسا بدءا من الستينات، وجاءت حلّا لمشكلات الفلسفة الوجودية، التي كانت قد بدأت تترهل، فالبنيوية بوصفها منهجا وبوصفها مذهبا فلسفيا أيضا تتسم بطابع الشمولية في تفسيراته، باستخدام تجليات العقل في المجالات المتباينة. جاءت البنيوية كتطوّر طبيعي لسيرورة فكرية تعود إل نهاية القرن السادس عشر، اي بدءا من الفلسفة التجريبية على يد " **لوك** " **وهيوم** "، مرورا إلى الفلسفة المثالية على يدي " **كانت** " **و** " **هيغل** "، **و** " **ديكارت** " وصولا إلى الفلسفة الظاهراتية عند " **هوسرل** " **و** " **هيدغر** ".

والربط المألوف للبنيوية بفلسفة " **كانت** " له ما يبرره، وهو تأسيس كانت لفلسفته العقلية المثالية على أساس مبدأ النسق، إلا أنّه اتكأ على العقل كمركز للنظر في المعرفة أو كنسق يسيّرها، في حين أنّ البنيوية استندت إلى اللغة.

2- الروافد

تستمد البنيوية روافدها من ألسنية **دوسوسير** وأنثروبولوجيا **ليفي شتراوس**، ونفسانية **بياجي** و**جاك لاكان**، وحفريات **ميشال فوكو** التاريخية والمعرفية **وأدبيات رولان بارت**.

لم تكن البنيوية إلا تتويجا لجهود المدرسة السوسيرية التي تسمى أحيانا حلقة " جنيف " بزعامة العالم اللغوي الكبير **فرديناند دوسوسير**، مؤسس اللسانيات الحديثة، عبر محاضراته الشهيرة، التي ألقاها في جامعة جنيف خلال الفترة الممتدة بين 1906 و1911، ثم سنوات، برعاية طالبيّة نشرت عام 1916، بعد وفاته بثلاث سنوات، برعاية طالبيه: **شارل بالي**، **وألبير يسشهاي**، تحت عنوان Cours de linguistique générale وقد شكّلت هذه المحاضرات" ثورة كوبرنيكية "في الدراسات اللغوية، على حدّ تعبير وصف **جورج مونان**.

بدأ الفكر الاجتماعي الفرنسي في سنوات اليأس بالتاريخ وانتهى بالأثروبولوجيا. هذا ما يقوله **هـ.ستيوارت هيوز**– وهذا الفكر لم ينته بل تغيّر عام 1955 مع صدور كتاب " " المدارات الحزينة " Tristes Tropiquesوهو سيرة ذاتية أنثروبولوجية كتبها **كلود ليفي شترواوس**.

إنّ هذا الكتاب لم يجلب الشهرة لصاحبه فحسب بل مهّد الطريق لكتابه " **الأنثروبولوجيا البنيوية**" **Anthropologie Structurale**، كما مهّد الطريق لتقبّل البنيوية، بوصفها محاولة ممنهجة للكشف عن الأبنية العقلية الكلية العميقة، كما يتجلى في أنظمة القرابة والابنية الاجتماعية الأكبر، ناهيك عن الأدب والفلسفة والرياضيات والأنماط النفسية اللاواعية التي تحرّك السلوك الإنساني.

ومنذ ذلك الحين اتخذت البنيوية أشكالا متنوعة في النظرية والمنهج على السواء. بعضُ هذه الأشكال أبقى على جوانب من منهج **ليفي شتراوس**، والبعض الآخر تجاوز هذا المنهج، والبعض الآخر طبق مباشرة عناصر معيّنة من النظرية الصوتية. ولكن لما كان **ليفي شتراوس** هو أوّل من كيّف لغويات دي سوسير ليطبقها في العلوم الاجتماعية.

والبنيوية لا تقتصر على مجال معرفي واحد، فكل النقاد البنيويون بشخصياتهم المتباينة ينتمون إلى مجالات معرفية، أو علوم متنوعة.، فكلّ واحد منهم يمثّل اتجاها بعينه ونهجا ونظريات مرجعية معينة داخل الحركة الشاملة، وهم يختلفون في النبرة كما يختلفون في المضمون.

ولقد ميّز **بودون Boudon – على سبيل المثال –** بين بنيوية منهجية والبنيوية الفلسفية في العلوم الإنسانية، موضّحا أنّ **ليفي شتراوس** يستخدم كلا النوعين على السواء. ويضيف **بودون** قائلا: «**يبدو أنّ الخلط محصور ضمن حدود جغرافية، ذلك أنّ هاريس أو تشومسكي مثلا لا يستخرجان نتيجة فلسفية بعينها من أعمالهما العلمية، رغم أنّ كليهما– على المستوى المنهجي– بنيوي مثل ليفي شترواوس**»

وكان أساس تفكير سوسير هو دراسة العلاقات الداخلية للغة دراسة علمية تكشف عن الدلالات الكلّية المحققة لقيمها الكلية، وهذه الخلفية التي ارتكز عليها البنيويون.

وتقرّ أكثر الدراسات أنّ البنيوية هي النتيجة النهائية للتنظير الشكلاني، وكانت الدراسات الشكلانية الروسية قد وضعت أسس علم جديد من خلال الدراسات التي أنجزتها خلال العشرينات من القرن الماضي، حيث ارتكزت على النص ولا شيء غير النص، وهكذا كانت لمجموعة الدراسات التي قدّمها

رواد الشكلانية: **تينيانوف، توماشوفسكي، ياكوبسون**، وغيرهم– دورا فعالا في بلورة المقاربة الشعرية الشكلانية.

لقد انتهى عصر البنيوية في باريس، تقريبا، ولكنّ الفرضيات البنيوية لا زالت تتخلّل الفكر الفرنسي، وتسهم في صياغة " ما بعد البنيوية ". ولم يكن علماء الاجتماع الأمريكيون إلى عهد قريب (ماعدا علماء الأثروبولوجيا) يأبهون كثيرا بالفكر البنيوي الفرنسي، رغم تزايد تعلّمه في أقسام الأدب بالجامعات.

أصبحت البنيوية جزءا من تاريخ الفكر الفرنسي، هذا الفكر الذي مرّ بعدّة مراحل متباينة منذ الحرب العالمية الثانية. وإذا كانت الماركسية قد شغلت تفكير المثقفين الفرنسيين، خلال فترة مقاومة الاحتلال النازي وفي أعقاب التحرير، فإنّ وجودية سارتر قد ظهرت في مناخ يتسّم بتزايد الشّك في الاتحاد السوفيتي والشيوعية، منطوية على وعد بتحقيق الذات في المجتمع الحديث. ولكن سرعان ما اصبحت نظريات سارتر محلا للشك والرّيب، ذلك لأنّ سارتر كان يقوم بالدعوة إلى الوجودية الإنسانية، ما أصبحت نظريات سارتر محلا للشك والرّيب.

وجدت الدراسات الشكلانية إقبالا كبيرا في فرنسا في الستينات ممن القرن الماضي، وظهر مجموعة من الرواد الذين عملوا على مواصلة المشوار الشكلاني، ومنحه الشرعية العلمية في الدرس الأدبي[1]، خصوصا بعدما ترجمت النصوص الشكلانية من الروسية إلى الفرنسية على يد **تودوروف**.

وشكل هذا الأخير إلى جانب **رولان بارت وجيرار جنيت** البداية الحقيقية للسرديات الحديثة. وتضاف جهود **غريماس وكلود بريمان**، التي اعتمدت نفس الخلفيات المعرفية، إلا أنّها تحولت إلى اتجاه آخر من اتجاهات الدراسة البنيوية ممثلا في السردية الدلالية أو السيميائية السردية.

ونضيف إلى هؤلاء النقاد البنيويين البارزين عالم النفس والمحلّل النفساني الفرنسي **جاك لاكان**، الذي عاد إلى فرويد، معتبرا اللاشعور لغة، وليس كما يعتبره الغير مكمن الغرائز والانفعالات، لها بنيتها وخصائصها، فاللغة تزخر عنده دائما بأشياء لا يستطيع الشعور أن يعبّر عنها.

[1] الشكلانية الروسية مثلتها حلقة موسكو المتكونة من عالم الفولكلور **بيوتر بوغاتريف- العالم اللغوي غررغوي فينكور**-منظر الأدب ومؤرخه **أوستين بيرك وبوريس توماشيفسكي وميخائيل باختين**، أمّا جماعة **الأوبوياز** التي تمثل جمعية اللغة الشعرية، من أعضائها: **فيكتور شكلوفسكي وايخنباوم، وليف جاكوبنسكي**

وفي ميدان سيميولوجيا الأدب نجد **لوسيان غولدمان** من أكبر ممثلي هذا الاتجاه أي البنيوية التكوينية.

3- الملامح العامة للمنهج البنيوي:

لقد أتاحت البنيوية كما أكدّت الباحثة **دليلة مرسلي** تقدّما جدّيا نحو موضعة الإجراءات المستخدمة، وأدت إلى أعمال تهدف إلى الإحاطة بالتخيّل الأدبي من وجهة نظر نظامية ودقيقة ذات فعالية عملياتية أكيدة.

- إنّ التحليل البنيوي يهمل كلّ ما هو عرضي من الظواهر ولا يهتم إلا بما هو حقيق وجوهري وثابت. وإذا كانت متطلبات فعل التفلسف التفكير في ماهية الإنسان والبحث الدؤوب عن جوهره، فإنّ الوصول إلى هذا الجوهر وهذه الماهية لن يتأتي لنا إلا بمعرفة ما هو أصيل وثابت وقبلي في هذا الإنسان بالذات.
- تتعامل البنيوية مع النص الأدبي بوصفه مادة معزولة عن سياقها وعن الذات القارئة، فالنص مستقلّ تماما عن المرجع الخارجي، فالعلاقة بين الأديب ومحيطه موجودة، ولكنّها في المنظور البنيوي لا ينبغي أن تبرّر وجود النص بالمعطيات الخارج- لسانية.
- يرتكز التحليل البنيوي على البنية اللغوية لإضاءة النص الأدبي وتفكيكه إلى عناصره، والكشف عن العلاقات المختلفة التي تصنع تعدّد الدلالات داخل البنية الكلية، فالأنساق اللغوية هي التي تحدّد المدلولات، بل تحدّد شكل العبارة، بحيث يكون تفاعل بين العناصر المكونة للنظام، فرصد السياق النصي يسمح بفهم العديد من العلاقات التركيبية بين أجزاء الكلام.
- التأكيد على النسق المعقول، الثابت داخل كلّ بنية وعلى استقلاله الذاتي، مما ينفي أيّ تناقض جدلي، وبذلك انتصرت البنيوية للعقلانية على حساب التاريخ.
- لا تهتم البنيوية بما هو واقعي، حقيقي، وتستبعد كلّ ما هو معيش، هذه العبارة البسيطة تضع على المحك تراثا فلسفيا عريقا يمتد من العقلانية الديكارتية حتى المثالية الألمانية بشقيها التصوري عند **كانط** والمطلق عند **هيغل**.

- يستبعد التحليل البنيوي أي تدخل للشعور في تفسير الظواهر.
- توظيف الرمز أو الرمزي بوصفه عهدا أو نظاما جديدا من أنظمة المعرفة.

د. واتيكي كميلة